

مَوْقِفُ الْإِسْلَامِ الْعِقْدِيُّ

مِنْ كُفْرٍ لِيَهُودَ وَالنَّصَارَى

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ

تَأَلَّفَ

الدَّكْتُورُ يُوسُفُ الْقِرْضَاوِيُّ

مُؤَسَّسَةُ الرِّسَالَةِ

مَوْقِفُ الْإِسْلَامِ الْعَقْدِي مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

الدكتور يوسف القرضاوي

مؤسسة الرسالة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وكفى، وسلام على رسله الذين اصطفى، وعلى خاتمهم المجتبى، محمد وآله وصحبه ومن بهم اقتدى فاهتدى .
(أما بعد)

فهذه الرسالة أردت بها تصحيح مفهوم عقدي، التبس على بعض الناس، وسألني عنه أكثر من سائل، وناقشني فيه منذ سنوات كاتب مسلم معروف، كان في ذهنه شبهات حوله، وقد زالت حين أوضحتها له .

وقد عشنا حتى رأينا البدهيات العقدية يغشاها الضباب والاضطراب، حتى تختلط وتلتبس على بعض العقول، فإن كفر اليهود والنصارى، من (المعلوم من دين الإسلام بالضرورة) كما هو معروف .
ولكننا غدونا في زمن عملت فيه الفتن الفكرية عملها، حتى أوشكت أن تحول القطيعات إلى محتملات، أو هكذا تحاول .

ومن هنا عنيت ببيان هذا الأمر، والرد على الكاتبة التي أثارته في مقالة لها في إحدى صحف قطر، تعليماً للجاهل وتبصرة، وتنبهاً للغافل وتذكرة، وإفحاماً للمعاند المكابر، وإقامة للحجة عليه، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة .

وقد بينت أن كفر أهل الكتاب من اليهود والنصارى، لا يعني أنهم ملاحدة منكرون للألوهية، فليس هو كفر إلحاد وجحود بالله تعالى ولقائه ووحيه. ولكنه كفر تحريف وتبديل للدين، وتشويه لعقيدة الألوهية والنبوة.

وأنا نعتقد كفرهم بديننا، كما يعتقدون هم كفرنا بدينهم. وهذا من حقهم، كما هو من حقنا.

وأنهم - مع هذا - لهم منزلة خاصة، باعتبارهم أهل دين سماوي في الأصل، ويشاركونا في مجمل الإيمان بالله وبالوحي وبالدار الآخرة، وعبادة الله، وبالقيم الأخلاقية.

ولهذه المنزلة أجاز لنا الإسلام أن نأكل ذبائحهم، ونتزوج نساءهم، مع اعتقادنا بكفرهم، وهذه قمة في التسامح مع المخالف.

وقد غرس الإسلام في عقلية كل مسلم مفاهيم أساسية للتسامح، لم يرق إليها أي دين من الأديان، بينها بإجمال، ليعلم من لم يكن يعلم: أن الاعتقاد بالكفر لا يناقض التسامح أبداً.

أسأل الله أن ينفع بهذه الرسالة، ويزيح بها الغشاوة عن العيون حتى ترى، وعن العقول حتى تفقه. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

صفر الخير ١٤٢٠ هـ

١٩٩٩ م

يونيو

الدوحة

يوسف القرضاوي

موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى .
(أما بعد)

فإن من أخطر القضايا التي نهت عليها في أكثر من كتاب لي :
محاولة خصوم الفكر الإسلامي التشكيك في (المسلّمات) وبذل الجهد
في تحويل (اليقينيّات) إلى (ظنيّات) و(القطعيّات) إلى (محمّلات)
قابلة للأخذ والرد، والجذب والشد، والقيل والقال .

وحسبهم الوصول إلى هذه النتيجة (زحزحة الثوابت) أو مناطحتها
بغية (تدوينها) حتى لا تقف سداً منيعاً أمام الذين يريدون أن يهدموا
حصون الأمة، أو على الأقل: يخرقوا أسوارها .

وقد وجدنا في عصرنا من يشكك في تحريم الخمر أو الربا، أو في
إباحة الطلاق وتعدد الزوجات بشروطه، بل من يشكك في حجّية السنة
النبوية، بل وجدنا من يدعو إلى أن نطرح علوم القرآن كلها، وكل
موارثنا من الثقافة القرآنية، ونلقيناها في سلة المهملات، لنبدأ قراءة
القرآن من جديد قراءة معاصرة، غير مقيدة بأي قيد ولا ملتزمة بأي علم
سابق، ولا بأية قواعد أو ضوابط مما قرره علماء الأمة على توالي
القرون .

والليالي من الزمان حبالى مثقلات، يلدن كل عجيب!

ومما ولدته الليالي الحاملة بالعجائب: ما يذهب إليه بعض الناس الذين أقحموا أنفسهم على الثقافة الإسلامية، دون أن يتأهلوا لها بما ينبغي من علم القرآن والسنة ولغة العرب وعلومها، وأصول الفقه، وتراث السلف، فدخلوا فيما لا يحسنون، وخاضوا فيما لا يعرفون، وأفتوا بغير علم، وحكموا بغير بينة، ودعوا على غير بصيرة، وقالوا على الله ما لا يعلمون.

ومن ذلك: زعمهم أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ليسوا كفاراً، فإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا ملحدين منكرين للألوهية والوحي، فهذا ادعاء صحيح، ولا يجوز الخلاف فيه.

وإن كانوا يقصدون أنهم ليسوا كفاراً بدين محمد ورسالته وقرآنه - وهو المراد من إطلاق الكفر عليهم - فهذه دعوى باطلة من غير شك.

فإن كفر اليهود والنصارى من أوضح الواضحات بالنسبة لأي مسلم عنده ذرة من علم الإسلام، ومما أجمعت الأمة على اختلاف مذاهبها وطوائفها، طوال العصور، لم يخالف في ذلك سني ولا شيعي ولا معتزلي ولا خارجي، وكل طوائف الأمة الموجودة اليوم من أهل السنة والزيدية والجعفرية والأباضية، لا يشكون في كفر اليهود والنصارى وكل من لا يؤمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فهذا من المسلمات الدينية المتفق عليها نظراً وعملاً، بل هي من (المعلوم من الدين بالضرورة) أي مما يتفق على معرفته الخاص والعام، ولا يحتاج إلى إقامة دليل جزئي للبرهنة على صحته.

وسر ذلك: أن كفر اليهود والنصارى لا يدل عليه آية أو آيتان، أو عشرة أو عشرون، بل عشرات الآيات من كتاب الله، وعشرات الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

كما يشهد بذلك كل من قرأ القرآن أو درس الحديث. وما كنت أظن أن أجد مسلماً يعارض صريح كتاب الله تعالى وقواطع النصوص برأيه وهواه.

وأنا أقصد بالحكم عليهم بالكفر: ما يتعلق بأحكام الدنيا، فالناس ينقسمون عندنا إلى قسمين لا ثالث لهما، إما مسلم وإما كافر، فمن ليس بمسلم فهو كافر، ولكن الكفار أنواع ودرجات، منهم أهل الكتاب ومنهم المشركون، ومنهم الجاحدون الدهريون، وكذلك منهم المسالمون، ومنهم المحاربون، ولكل منهم حكمه.

أما فيما يتعلق بأحكام الآخرة، وهل هذا الكافر ناج أو معذب؟ فهذا موكول إلى علمه تعالى وعدله. وقد قال تعالى: ﴿أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] فأما الكافر الذي لم تبلغه الدعوة أصلاً، أو لم تبلغه بلوغاً مشوقاً يحمل على النظر والبحث أو حالت حوائل قاهرة دون دخوله في الإسلام، فهذا لا يكون من المعذبين حسب وعد الله تعالى وعدله.

والقرآن إنما توعد الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى، كبراً وعلواً، أو حسداً وبغياً، أو حباً للدنيا، أو تقليداً أعمى إلخ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

يقول شيخنا شلتوت رحمه الله :

هذا، ولقد كنت عرضت بسرعة للحديث عن كفر أهل الكتاب في أحد دروس صلاة التراويح في شهر رمضان بالمسجد الكبير بالدوحة، ولم أكن أعلم أن هناك من عقب على هذا الأمر، حتى أخبرني به بعض الإخوة الفضلاء من قريب، فسعيت إلى استحضاره، لأعلم ماذا قيل في ذلك.

وقد عجبت كل العجب من هذا المقال المطول الذي نشرته صحيفة (الوطن) القطرية باسم (سراب الحافظ) وكنت أظنه (اسماً مستعاراً) وقلت في نفسي: إن صاحب المقال اختار اسماً يعبر عن حقيقة مقولته، فهي (سراب) بقيقة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً.

ولكن بعض الإخوة قالوا لي: إنه اسم حقيقي، وإنه اسم لسيدة وليس لرجل.

وعلى كل حال نحن نناقش القول، ولا يهمنا القائل. والحق أنني تحاملت على نفسي لأكتب هذا الرد، إيضاحاً للحقيقة، وإقامة للحجة، وإعذاراً إلى الله تعالى: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولعل الأخت الكاتبة التبس عليها الأمر بسبب قراءة ناقصة للنصوص غير مستوعبة، أو قراءة انتقائية لبعض النصوص دون بعض، أو بسبب فهم غير سليم لبعض المفاهيم الإسلامية، لقصور في ثقافتها الشرعية، وتكوينها العلمي فإن كانت تنشد الحق فستجد في تعقيبي

هذا ما يهديها إليه، وينير لها الطريق إن شاء الله، وإن كانت متعصبة لرأيها، فحسبي أني بلغت وبيّنت ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

حقيقة الإيمان بالغيب:

تقول الكاتبة: إن المفهوم الأساسي للإيمان في القرآن والسنة النبوية المشرفة هو: الإيمان بالغيب، أي الإيمان: بالله واليوم الآخر، على ملة إبراهيم عليه السلام، والكفر هو عكس الإيمان بالغيب، أي: الكفر بالله واليوم الآخر، والشرك بالله هو في حكم الكفر به.

وذكرت في ذلك آيات كريمة تدل على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر.

ونحن نرى معها ضرورة الإيمان بالغيب، ومنه الإيمان بالله واليوم الآخر، ولكننا ننكر عليها: إخراجها الإيمان بالنبوة والرسالة من الإيمان بالغيب، مع أن الإيمان بكتب الله تعالى ورسله هو جزء من الإيمان بالغيب لا ريب فيه.

وكان الكاتبة تتوهم أن الإيمان بالكتب هو إيمان بالورق الذي كتبت عليه والمداد الذي كتبت به، فلهذا لم تعتبره من الإيمان بالغيب، وكذلك توهمت أن الإيمان بالرسول يعني: الإيمان بأشخاصهم المنظورة والمتحركة أمام الأعين، فلهذا لم تعدها من الإيمان بالغيب. مع أن المقصود من ذلك هو: الإيمان بأن الله تعالى أوحى إلى رسله، وأنزل عليهم كتباً، وبلغهم أوامر ونواهي، عن طريق ملائكته أو عن طريق الإلهام المباشر، وهذه كلها من أمور الغيب،

فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، كلها من الإيمان بالغيب.

وقد استشهدت الكاتبة ببعض الآيات والأحاديث التي اكتفت في مجال الإيمان بذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، ولم تذكر الإيمان برسل الله عز وجل، وحسبت أن ذلك حجة قاطعة لها. وهي مخطئة في ذلك بيقين.

فالنصوص القرآنية والحديثية تجمل أحياناً، وتفصل أحياناً حسب
المقام.

فأحياناً تذكر كل متعلقات الإيمان وأركانها، مثل قوله تعالى:

﴿ وَلَكِنَّ الْآيَةَ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَمَتْ بِكَ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ ﴾

[البقرة: ١٧٧] ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ. وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ

وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ. ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله واليوم الآخر، كما في الآيات التي ذكرتها الكاتبة وغيرها. ذلك: أن الإيمان بالله والإيمان بالجزاء الأخروي هما أعظم أركان الإيمان.

وأحياناً يذكر الإيمان بالله ورسله، كما في قوله تعالى:

﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد: ٢١]

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَهُمْ ﴾ [الحديد: ١٩].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله تعالى وبما أنزل على رسله، كما في قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ وَلَا تَمْلِكُ

وَلِيَسْحَقَ . . . ﴿البقرة: ١٣٦﴾.

وأحياناً يذكر الإيمان بما أنزل الله فقط، كما في قوله تعالى:
﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [النساء: ٤٧]
وقوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَأَمِنُوا بِمَا آتَيْنَاكَ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١].

وأحياناً يذكر الإيمان بالله تعالى دون غيره من بقية الأركان، كقوله
تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ
يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [الطلاق: ١١].

بل أحياناً يذكر كلمة الإيمان مجردة من متعلقاتها، كما في النداء
القرآني المتكرر: ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا
يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ
الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] وهذا كثير في القرآن.

وهذا الاكتفاء في بعض المواضع ببعض أركان الإيمان لا يعني
الاستغناء عن بقية الأركان، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً، ويصدق بعضه
بعضاً، فما أجمل في مكان فصل في آخر، وما أبهم في موضع بين في
غيره، وما أطلق في موقع قيد في موقع آخر، ولا بد أن يؤخذ القرآن
كله، ولا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض، ولو كان من عند غير الله
لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

ومن ذلك: الاكتفاء بشهادة أن لا إله إلا الله في بعض النصوص،

وذلك لأن الكلام كان مع مشركي العرب، والمعركة الأساسية معهم كانت على التوحيد، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، فقد استجابوا لمحمد ﷺ، ولم يفهم أحد في الأولين ولا الآخرين أنهم إذا قالوا: لا إله إلا الله وكفروا بمحمد، كانوا مؤمنين ناجين.

وكننت أود من الكاتبة التي ذكرت بعض أحاديث البخاري ومسلم التي اكتفت بإعلان (لا إله إلا الله) أن تذكر الأحاديث الأخرى التي اشترطت كل أركان الإيمان.

وذلك مثل الحديث المشهور المعروف بحديث جبريل، حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث بعد الموت»^(١).

ومثل ما رواه عنه ابن عمر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة..»^(٢).

وما رواه عنه عبادة بن الصامت: «من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٣).

وما رواه ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل، حين

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم (١٥).

(٢) المصدر السابق: ١٥.

(٣) نفسه: ١٧.

بعثه إلى اليمن: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات..»^(١) الحديث.

وما رواه أبو هريرة: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(٢).

ثم إن الكاتبة تشترط أن يكون إيمان المؤمن من أهل الكتاب على ملة إبراهيم عليه السلام، ولا أدري من أين تعرف ملة إبراهيم، وأي مصدر تعتمد عليه في ذلك؟

إن المصدر الفذ لمعرفة ملة إبراهيم هو المصدر الإسلامي، أي: هو القرآن، وما يبينه من السنة، فالقرآن هو الوثيقة السماوية الوحيدة التي نأمن أن نأخذ منها معارفنا، دون أن نخشى تسلل الباطل والوهم والتحريف إليها.

اتباع المتشابهات:

ولقد كنت نبهت في كتابي (المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة) وأكدت ذلك في كتابي (كيف نتعامل مع القرآن العظيم) على قضية في غاية الخطر، وهي التعويل على (المتشابهات) من النصوص

(١) رواه البخاري في كتاب الزكاة. حديث (١٤٩٦)، ومسلم في الإيمان.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة. برقم ١٥٣.

والإعراض عن (المحكمات) فهذا شأن الذين في قلوبهم زيغ، كما نص القرآن في الآية السابعة من سورة آل عمران: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧].

وليس هذا شأن الراسخين في العلم، المتمكنين في الدين، فإنهم يردون المتشابهات إلى المحكمات، ذلك أن المحكمات هي الأصل، وهي أم الكتاب ومعظمه، فيجب أن تفهم المتشابهات في ضوءها، وفي إطارها، فهي التي تضبطها وتحكمها. ولكن هؤلاء - للأسف الشديد - يعكسون القضية، اتباعاً لأهوائهم، أو لأهواء الذين لا يعلمون.

وقد رأينا الكاتبة - هدايا الله وإياها - تركض وراء المتشابهات من النصوص، تريد أن تتخذ منها أساساً لمقولتها، وتغفل النصوص المحكمة القطعية، التي لا شبهة في دلالتها، ولا يتطرق إليها احتمال يوهن من قيمتها وبخاصة أنها تستند إلى هذه المتشابهات، ولا تعني بنقل رأي علماء الأمة في فهمها ودلالتها. . مرة واحدة نقلت عن ابن عطية ولم يغنها نقلها من الحق شيئاً.

اعتمدت على قول الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣] مع أن المقصود بحكم الله في الآية هو حكم الرجم الذي حاولوا التهرب منه، كما ذكرت الباحثة ذلك نقلاً عن صحيح البخاري.

واعتمدت كذلك على قوله سبحانه: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٧]. والمراد: الحكم بما أنزل الله فيه من البشارة بمحمد ورسالته، وغير ذلك من الأحكام والوصايا الأخلاقية.

وكان الأولى بها إن كانت تنشد الحق أن ترجع إلى أهل الاختصاص من الأئمة والمفسرين السلف والخلف، لمعرفة ماذا قالوا في الآيتين.

أم تريد أن تقول: إنها لا تحتاج إلى ذلك؟ فهي أعلم من كل علماء الأمة، مفسرين ومحدثين ومتكلمين وفقهاء!!

ما قاله صاحب المنار في تفسير الآيات:

اقرأ معي في تفسير المنار حول الآيات التي استشهدت بها الكاتبة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ [المائدة: ٤٣].

يقول صاحب المنار: هذا تعجيب من الله لنبيه ببيان حال من أغرب أحوال هؤلاء القوم، وهو أنهم أصحاب شريعة يرغبون عنها ويتحاكمون إلى نبي جاء بشريعة أخرى وهم لم يؤمنوا به. أي: وكيف يحكمونك في قضية كقضية الزانيين أو قضية الدية والحال أن عندهم التوراة التي هي شريعتهم فيها حكم الله فيما يحكمونك فيه، ثم يتولون عن حكمك بعد أن رضوا به وآثروه على شريعتهم لموافقتها لها؟ أي: إذا فكرت في هذا رأيته من عجيب أمرهم، وسببه: أنهم ليسوا بالمؤمنين إيماناً صحيحاً بالتوراة ولا بك، وإنما هم ممن جاء فيهم

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلِيرٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] فإن المؤمن الصادق بشرع لا يرغب عنه إلى غيره إلا إذا آمن بأن ما يرغب إليه شرع من الله أيضاً أيد به الأول، أو نسخه لحكمة اقتضت ذلك باختلاف أحوال عباده. وهؤلاء تركوا حكم التوراة التي يدعون الإيمان بها واتباعها لأنه لم يوافق هواهم. وجاؤك يطلبون حكمك رجاء أن يوافق هواهم، ثم يتولون ويعرضون عنه إذا لم يوافق هواهم. فما هم بالمؤمنين بالتوراة ولا بك، ولا بمن أنزل على موسى التوراة وأنزل عليك القرآن، وقد يقولون أنهم مؤمنون، وقد يظنون أيضاً أنهم مؤمنون، غافلين عن كون الإيمان يقينا في القلب، يتبعه الإذعان بالفعل، ويترجم عنه اللسان بالقول. ولكن اللسان قد يكذب عن علم وعن جهل فمن أيقن أذعن، ومن أذعن عمل. لأن الإيمان الإذعاني هو صاحب السلطان الأعلى على الإرادة، والإرادة هي المصروفة للجوارح في الأعمال.

أما حكم الرجم في التوراة التي بين أيدينا اليوم فهو خاص ببعض الزناة. قال في الفصل ٢٢ سفر التثنية بعد بيان أن من تزوج فوجدها ثيباً ترجم عند باب بيت أبيها: (٢٢) إذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشر من إسرائيل (٢٣) إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل، فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة، وارجموهما بالحجارة حتى يموتا - الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه فتنزع الشر من وسطك) ثم ذكر أحكاماً أخرى في الزنا، منها قتل أحد الزانيين ومنها دفع غرامة والتزوج بالمزني بها.

ومما يجب التنبيه له هنا: أن دعاة النصرانية يحتجون بهذه الآية وما في معناها على كون التوراة التي في أيديهم وأيدي اليهود هي ما أنزله الله تعالى على موسى لم يعرض لها تغيير ولا تحريف. ذلك أنهم كأولئك اليهود الذين يأخذون من القرآن ما يوافق أهواءهم ويردون ما يخالفها جديلاً. والمؤمنون يؤمنون بالكتاب كله، فالكتاب بين لنا أن عندهم التوراة أي: الشريعة، وأن فيها حكم الله في القضية التي تحاكموا فيها إلى النبي ﷺ وقد صدق الله تعالى وهو أصدق القائلين. وبين لنا أيضاً: أنهم حرّفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به وأنهم إنَّما أوتوا نصيباً من الكتاب إذ نسوا نصيباً آخر وأضاعوه. وقد صدق الله تعالى في ذلك أيضاً. ولما خرجت أمة القرآن بالقرآن من الأمية وعرفوا تاريخ أهل الكتاب وغيرهم كالبابليين ظهر لهم: أن إخبار القرآن بذلك كان من معجزاته الدالة على أنه من عند الله، إذ ظهر لهم أن اليهود قد فقدوا التوراة التي كتبها موسى ثم لم يجدوها، وإنما كتب لهم بعض علمائهم ما حفظوه منها ممزوجاً بما ليس منها، والتوراة التي في أيديهم تثبت ذلك، كما بيناه في غير هذا الموضع.

ومنه تفسير أول سورة آل عمران وتفسير الآية ١٤ و ١٥ من هذه

السورة:

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ لَا تَسْتَرُوا بِتَائِقِي تَمَنَّا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤] إلى قوله

تعالى: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧].

قال صاحب المنار: هذه الآيات من سياق التي قبلها والتي بعدها، والغرض منها بيان كون التوراة كانت هداية لبني إسرائيل، فأعرضوا عن العمل بها لما عرض لهم الفساد، وبيان مثل ذلك في الإنجيل وأهله، ثم الانتقال من ذلك إلى ما سيأتي من ذكر إنزال القرآن ومزيته وحكمة ذلك. ومنه يعلم: أن العبرة بالاهتداء بالدين وأنه لا ينفع أهله الانتماء إليه إذا لم يقيموه، إذ لا يستفيدون من هدايته ونوره، إلا بإقامته والعمل به، وأن إيثار أهل الكتاب أهواءهم على هداية دينهم، هو الذي أعماهم عن نور القرآن والاهتداء به.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٤].

أي: إنا نحن أنزلنا التوراة على موسى مشتملة على هدي في العقائد والأحكام خرج به بنوا إسرائيل من وثنية المصريين وضلالهم، وعلى نور أبصروا به طريق الاستقلال في أمر دينهم ودنياهم ﴿ يَحْكُمُ بِهَا التَّائِبُونَ الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ أنزلنا قانوناً للأحكام يحكم بها النبيون - موسى ومن بعده من أنبياء بني إسرائيل - طائفة من الزمان، انتهت ببعثة عيسى ابن مريم عليه السلام. وهم الذين أسلموا وجوههم لله مخلصين له الدين على ملة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فالإسلام دين الجميع، وكل ما استحدثه اليهود والنصارى من أسباب التفرق في الدين، فهو باطل وضلال مبين. وإنما يحكمون للذين هادوا أي: اليهود خاصة. لأنها شريعة خاصة بهم لا عامة، ولذلك قال، آخروهم عيسى: لم أرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة. ولم يكن

لداود وسليمان وعيسى من دونها شريعة .

وقال تعالى: ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾ قرأ الجمهور: ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بصيغة الأمر، وهو حكاية حذف منها لفظ القول - ومثله كثير في القرآن - أي وقلنا، ليحكم أهل الإنجيل بما أنزله الله فيه من الأحكام، أي أمرناهم بالعمل به، فهو مثل قوله في أهل التوراة ﴿ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ﴾ كذا وكذا. وقرأ حمزة: ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ بكسر اللام، أي ولأجل أن يحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه. وجوزوا أن يكون قوله: ﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً ﴾ مفعولا لأجله وعطف ﴿ وَلِيَحْكُمَ ﴾ عليه مع إظهار اللام لاختلاف الفاعل، وكيفما قرأت وفسرت لا تجد الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى في القرآن بالحكم بالإنجيل كما يزعم: دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين. ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارة أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم، فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل ولن يستطيعوه. وسيأتي لهذا البحث تنمة .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة:

٤٧] أي فأولئك هم الخارجون من حظيرة الدين الذين لا يعدون منه في شيء، أو الخارجون من الطاعة له المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

وقال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِئْتِنَتُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴾ [٤٨] وَإِنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ

اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤٩﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٠].

يقول صاحب المنار: هذه الآيات تنتم السياق: بين الله تعالى شأنه إنزال التوراة ثم الإنجيل على بني إسرائيل، وما أودعه فيهما من هدى ونور، وما حتم عليهم من إقامتهما، وما شدد عليهم من إثم ترك الحكم بهما، فناسب بعد ذلك أن يذكر إنزاله القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، ومكانه من الكتب التي قبله، وكون حكمته تعالى اقتضت تعدد الشرائع ومناهج الهداية - فتلك مقدمات ووسيلة، وهذا هو المقصد والنتيجة، قال: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: وأنزلنا إليك الكتاب الكامل الذي أكملنا به الدين، فكان هو الجدير بأن ينصرف إليه معنى الكتاب الإلهي عند الإطلاق، وهو القرآن المجيد - هذه حكمة التعبير بالكتاب بعد التعبير عن كتاب موسى باسمه الخاص [التوراة] وعن كتاب عيسى باسمه الخاص [الإنجيل] - ومثل هذا إطلاق لفظ النبي حتى في كتبهم - وقوله: بالحق إلخ معناه أنزلنا متلبساً بالحق مؤيداً به مشتملاً عليه مقررراً له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقاً لما تقدمه من جنس الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، أي: ناطقاً بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم.

وأما قوله: ومهيمننا عليه - أي على جنس الكتاب الإلهي -

فمعناه: أنه رقيب عليها وشهيد، بما بينه من حقيقة حالها، في أصل إنزالها، وما كان في شأن من خطبوا بها، من نسيان حظ عظيم منها وإضاعته، وتحريف كثير مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها لأنه جاء بعدها. روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال: «ومهمنا عليه» يعني: أميناً عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب. وفي رواية عنه عند الفريابي وسعيد بن منصور والبيهقي ورواة التفسير المأثور قال: مؤتمنا عليه. وفي رواية أخرى قال: شهيداً على كل كتاب قبله. اهـ.

هل تكفي (لا إله إلا الله) وحدها؟

واعتمدت الكاتبة كذلك على الأحاديث التي جعلت نجاة الإنسان وخلصه في قول: «لا إله إلا الله» أي: في عدم الشرك، ولم تذكر شهادة أن محمداً رسول الله. وذكرت لنا جملة أحاديث صحاح وردت بذلك.

ولسنا ننكر صحة هذه الأحاديث، ولكننا ننكر ما فهمته منها، فهو فهم خاطيء لعدة أدلة:

أولها: أن في مقابل هذه الأحاديث أحاديث صحاحا جملة أخرى، تشترط الشهادتين للنجاة وقد ذكرنا بعض هذه الأحاديث في موضع آخر. والأمانة العلمية تقتضي أن تذكر هذه الأحاديث بجانب تلك، لا أن تنتقي ما يفيد دعاواها، وتغض الطرف عما ينقضها.

وثانيها: أن بعض هذه الأحاديث هو اختصار من الرواة في بعض الروايات، وفيها روايات أخرى تذكر الشهادتين جميعاً كما في حديث

معاذ، في أن من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة أو حرمه الله على النار، أو نحو ذلك، جاء في بعض الروايات في صحيح البخاري بالشهادتين جميعاً، كما رواه في كتاب العلم أنه ﷺ قال له: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النار». قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إذن يتكلموا» وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً^(١).

وثالثها: أن العلماء بينوا السر في هذا الاختصار، فذكروا في حديث «من قال: (لا إله إلا الله) دخل الجنة» قالوا: والمراد: مع قوله: «محمد رسول الله» لكن قد يكتفي بالجزء الأول من كلمتي الشهادة؛ لأنه صار شعاراً لمجموعهما^(٢).

ورابعها: أن هذا الاختصار على شهادة الوحيد (أن لا إله إلا الله) أو على ترك الشرك (من لقي الله لا يشرك به شيئاً) - لا يفيد الكاتبة فيما تدعيه للمسيحيين من صحة إيمانهم وأنهم من أهل التوحيد، أو أهل (لا إله إلا الله) إذ أن أهل هذه الكلمة هم أمة محمد وحدهم، أما المسيحيون فقد قال الله تعالى في شأنهم: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] نسبهم الله صراحة إلى الشرك، وإن لم يسموا (المشركين) تمييزاً لهم عن عبدة الأوثان.

(١) انظر فتح الباري جـ ١/ ٣٠٠، ٣٠١ الطبعة السلفية حديث ١٢٨.

(٢) فتح الباري جـ ١/ ٢٥٨.

والمسيحيون معروفون أنهم من أهل التثليث، وأهل تأليه المسيح، لا أهل التوحيد، ومن أجل هذا، حكم القرآن عليهم بالكفر، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾ [المائدة: ٧٢] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

ولهذا كان يختم الرسول ﷺ دعوته إلى ملوك النصارى وأمرائهم بالآية الكريمة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ووجه القرآن إليهم هذا النداء الصريح: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ لَوْمَةٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكُنِيَ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١].

الإيمان بالرسول ركن أساسي في العقيدة:

ومن المسلمات البديهية في دين الإسلام، التي اعتبرها ركناً أساسياً من أركان الإيمان والعقيدة: الإيمان بالنبوة والوحي، والتصديق برسالات الله، وبرسوله إلى خلقه، الذين بعثهم مبشرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

فلا يصح إيمان مؤمن، ولا يدخل في دين الله، ولا يقبل في جماعة المؤمنين، ما لم يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل.

وهذا أمر في غاية الوضوح في كتاب الله وسنة رسوله، لا يرتاب فيه مسلم، ولا يتردد فيه عقل، ولا يتلجلج به لسان.

يقول تعالى مبيناً حقيقة البر وأركان الإيمان، رداً على اليهود الذين آثاروا ضجة حول تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. فذكر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله صراحة، وأشار إلى الإيمان باليوم الآخر بقوله: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] وقد أثارت الكاتبة شبهة حول هذه الآية، ونقلت - لأول مرة ولأخرة مرة - كلاماً عن بعض المفسرين، وأن المراد بالخطاب فيها المسلمون، فهم الذين آمنوا حقاً. وأنا أسلم بهذا، ولكن أين هي من دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ... إلخ﴾ فهذه تعم الجميع مسلمين وغير مسلمين. لأن لفظة (من) ألفاظ العموم، كما هو معلوم.

ويقول تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١].

وفي السنة في حديث جبريل المشهور، عندما سأله عن الإيمان قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر».

وإنما لم يذكر القرآن الإيمان بالقدر. لأنه من جملة الإيمان بالله تعالى، فهو إيمان بمقتضى الكمال الإلهي، وأنه علم كل شيء وأراده قبل أن يقع، ﴿وَلَا حَبَئٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

المهم أن الإيمان بالرسل لا ريب فيه ولا خلاف عليه. ولهذا ورد أن الناس يوم القيامة، يسألون سؤالين رئيسين: أولهما: ماذا كنتم تعبدون؟ والثاني: بماذا أجبتم المرسلين؟

ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾ [القصص: ٦٥ - ٦٦].

ولقد رد القرآن على المكذبين، الذين استبعدوا أن يرسل الله إليهم رسولا يبشرهم وينذرهم ويهديهم إلى صراط مستقيم.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وقال عز وجل على لسان هود عليه السلام: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧﴾ أُلَيْقُمَكُمْ رَسُولٌ مِّن رَّبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿٩﴾ [الأعراف: ٦٧ - ٦٩].

وقال تعالى في شأن خاتم رسله محمد: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴿يونس: ٢﴾.

وقد بين علماء المسلمين قديماً وحديثاً حاجة البشر إلى الوحي والرسالة، ومن أروع ما كتب عن ذلك في العصر الحديث: ما كتبه الإمام محمد عبده في (رسالة التوحيد).

المهم أن الإيمان برسل الله جميعاً: عقيدة إسلامية أساسية، ومن كذب رسولاً واحداً من رسل الله حقاً، فكانما كذب المرسلين جميعاً.

وهذا ما يقرره القرآن حينما قال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦١﴾ وَهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا إِلَّا نُوحًا، ﴿١٦٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٣﴾ وَهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا إِلَّا هُودًا، ﴿١٦٤﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾ وَهُمْ لَمْ يَكْذِبُوا إِلَّا صَالِحًا، وكذلك قال عن قوم لوط وقوم شعيب. وإنما نسب إليهم تكذيب المرسلين. لأنهم كذبوا واحداً منهم، فكانهم جحدوا مبدأ الرسالة نفسه.

فمن زعم: أنه آمن بالله تعالى، ولكنه كذب رسله أو واحداً منهم ممن ثبتت رسالته، فهو كاذب في دعوى الإيمان إذ الإيمان الحق: ما جاء على لسان الرسول الصادق المؤيد بالآيات، ومن قال: أو من بواحد أو بمجموعة، ولا أو من غيره، أو بغيرهم ممن هو مثلهم، أو أعلى منهم، فهو كاذب في دعوى إيمانه، بل القرآن يقول عن مثله: إنه الكافر حقاً.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

بَعْضُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

وهاتان الآيتان نزلتا في شأن اليهود والنصارى، فاليهود آمنوا بموسى وكفروا بعيسى ومحمد، والنصارى آمنوا بموسى وعيسى وكفروا بمحمد. والمسلمون وحدهم هم الذين آمنوا بالجميع، وبكل نبي أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿١٥٢﴾ [النساء: ١٥٢].

رسالة محمد للعالمين، ومنهم اليهود والنصارى:

ومما لا ريب فيه، ولا خلاف عليه، وهو من بدهيات الإسلام المعروفة للجميع: أن رسالة محمد ﷺ رسالة للعالم كله، وليست رسالة للعرب وحدهم، الذين بعث منهم ونشأ فيهم، واليهود والنصارى جزء من هذا العالم الذي بعث محمد ليهديه من الضلالة، ويخرجه من الظلمات إلى النور.

وهذا أمر مقطوع به، ومن ضروريات دين الإسلام، والأدلة عليه أكثر من أن تحصى.

ونحن نتبرع بذكر بعض الدلائل على ذلك:

يقول تعالى مخاطباً رسوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨].

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾

[الفرقان: ١].

وفي أكثر من سورة جاء عن القرآن: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ .
وجاء في ثلاث آيات من القرآن قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة: ٣٣] والفتح: ٢٨ والصف: ٩] ومعنى هذا غلبة الإسلام على كل الأديان ومنها دين أهل الكتاب.

وأكثر من ذلك تصريح القرآن بإرسال محمد إلى أهل الكتاب خاصة، وإعلان هذه الحقيقة واضحة بارزة للعيان، يقول تعالى: ﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة: ١٥ - ١٦].

وتتوالى آيات القرآن الكريم تدعو أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإيمان برسالة محمد ﷺ، وبما أنزل الله عليه من الكتاب، مصدقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيماً عليها، أي: مصححاً لها ومتمماً، وتحذراً من التخلف عن هذا الإيمان.

يقول الله تعالى لبني إسرائيل :

﴿ يَبْنِيْ اِسْرَءِيْلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيْ اَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَاَوْفُوا بِعَهْدِيْ اَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَاِتٰى فَاَزْهَبُوْنَ ﴿١٤١﴾ وَاٰمِنُوْا بِمَا اَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُوْنُوْا اَوَّلَ كٰفِرِيْنَ بِهٖ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيَّيْنَا ثَمَنًا قَلِيْلًا وَاِتٰى فَاُفْسُوْهُنَّ ﴿١٤٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوْا الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَعْلَمُوْنَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ٤٠ - ١٤ - ٤٢].

فهنا يأمرهم الله تعالى أن يؤمنوا بما أنزل الله من القرآن مصداقاً لما معهم ، ولا يكونوا أول الكافرين به .

ويقول تعالى مندداً بموقف اليهود من القرآن : ﴿ وَاِذَا قِيْلَ لَهُمْ ءَامِنُوْا بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ قَالُوْا نُوْمِنُ بِمَا اُنْزِلَ عَلَيْنَا وَنَكْفُرُوْكَ بِمَا وَّرَآءُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة: ٩١].

وقال تعالى مبيناً موقف بني إسرائيل من رسل الله : ﴿ وَلَقَدْ اَتَيْنَا مُوسٰى الْكِتٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنْۢ مَّعْدُوْرِهِ بِالرُّسُلِ وَاَتَيْنَا عِيْسٰى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنٰتِ وَاَيَّدْنَاهُ بِرُوْحِ الْقُدُسِ اَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُوْلٌ بِمَا لَا تَهْوٰى اَنْفُسُكُمْ اَسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُوْنَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوْا قُلُوْبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللّٰهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيْلًا مَّا يُؤْمِنُوْنَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتٰبٌ مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوْا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُوْنَ عَلَى الَّذِيْنَ كَفَرُوْا فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَا عَرَفُوْا كَفَرُوْا بِهٖ فَلَمَنَّهُ اللّٰهُ عَلَى الْكَافِرِيْنَ ﴿٨٩﴾ يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا اذْكُرُوْا اَنْفُسَكُمْ اَنْ يَّكْفُرُوْا بِمَا اَنْزَلَ اللّٰهُ بَعِيْنًا اَنْ يُنْزَلَ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهٖ عَلَى مَن يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ فَبَآءُ وَبِعَصَبِ عَلَى عَصَبٍ وَلِلْكَافِرِيْنَ عَذٰبٌ مُّهِِيْنٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧ - ٩٠] فقد كان اليهود قبل البعثة المجددية إذا تقاتلوا مع العرب يقولون لهم : قد قرب مبعث رسول من عند الله ، سنؤمن به ، ونقاتلكم معه ، ونتنصر عليكم .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اَرْسَلْنَا اِلَيْكَ ءَايٰتِيْ بَيِّنٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا اِلَّا

أَلْفَتَسِقُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ
بِذِّ قَرِيْبٍ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴿البقرة: ٩٩ - ١٠١﴾.

وفي سورة النساء يوجه الله سبحانه وتعالى نداء صريحاَ إلى أهل
الكتاب أن يؤمنوا بما أنزل الله على محمد، ويهددهم بالمسخ واللعن
إن لم يفعلوا. يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا
مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ نَطْغِسَ وُجُوهَافَرَدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا
لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء: ٤٧] وهذا نص
واضح كالشمس في رابعة النهار.

ومن أجل ذلك أرسل النبي ﷺ رسله إلى ملوك أهل الكتاب من
النصارى يحملون رسائله إليهم، يدعوهم فيها إلى الإسلام، وترك ما
هم فيه من الكفر والضلال، فكما أرسل إلى كسرى ملك فارس،
ورئيس المجوس الذين يعبدون النار، أرسل إلى قيصر ملك الروم -
وهو المعروف باسم (هرقل) - وكذلك أرسل إلى النجاشي ملك
الحبشة، وإلى المقوقس وإلى مصر من قبل الدولة الرومية، وإلى أمراء
في بلاد الشام، وكلهم من أهل الكتاب من النصارى، يدعوهم أن
يسلموا ليسلموا، ويؤتيهم الله أجرهم مرتين: مرة على دينهم قبل أن
تبلغهم دعوة الإسلام، ومرة بدخولهم في دين الإسلام، ثم كان يختم
رسائله إليهم بهذه الآية من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ
الْكِتَابَ تَعَالَوْاْ
إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ
بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾
[آل عمران: ٦٤].

وهذه الآية تشير بوضوح إلى أن هؤلاء النصارى قد خلطوا توحيدهم بالشرك بالله، واتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله، فانحرفوا عن الصراط المستقيم لملة إبراهيم الحنيفية. وهذا واضح بين مما سجله القرآن عليهم من قولهم: **إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ**، **إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ**، **وَأَنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ**، ويقول تعالى: ﴿**أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

دلائل أخرى على كفر أهل الكتاب:

ومن الدلائل الأخرى على كفر أهل الكتاب قوله تعالى: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ**﴾ [البقرة: ١٢٠].

وهذا يدل على أن لهم ملة أخرى غير ملة الإسلام التي هي ملة إبراهيم حنيفاً، وهي التي قال الله لرسوله في شأنها: ﴿**قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال جل شأنه: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ** إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢].

ومعلوم أن الله لا ينهى عن اتخاذ المؤمنين أولياء، إنما ينهى عن اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ**

عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ [النساء: ١٤٤].

﴿ بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ [النساء: ١٣٨ - ١٣٩].

وفي السياق نفسه الذي نهى فيه عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، يقول تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيْمُونَ مَنَآءَ اِلَآ اَنۡ اَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنۡزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنۡزِلَ مِنۡ قَبْلُ وَاَنۡ اَكْثَرُكُمْ فَتٰسِفُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ اُنۡبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنۡ ذٰلِكَ مَثُوْبَةٌ عِنۡدَ اللّٰهِ مَنۡ لَّمۡعَنۡهُ اللّٰهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ اُولٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَاَضَلُّ عَنۡ سَوَآءِ السَّبِيْلِ ﴿٦٠﴾ وَاِذَا جَآءَ كُفُّوۡكُمْ قَالُوۡا اَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوۡا بِالْكَفْرِ وَهُمۡ قَدْ خَرَجُوۡا بِهٖۤ ؕ وَاللّٰهُ اَعْلَمُ بِمَا كَانُوۡا يَكْتُمُوۡنَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المائدة: ٥٩ - ٦١].

ويقول سبحانه: ﴿ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيُزِيدَكُمْ كَثِيرًا مِنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ٦٨].

بين الله سبحانه أن أهل الكتاب ليسوا على شيء من الدين حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم، أي: القرآن العظيم.

الإيمان لا يتجزأ:

بل الإيمان يوجب على كل مؤمن أن يأخذ بدينه كله، ولا يرفض شيئاً أساسياً مقطوعاً به من دينه، وإلا فهو مرتد عن دينه، مارق منه، كما يمرق السهم من الرمية. وقد عاب القرآن على بني إسرائيل إيمانهم ببعض الكتاب وكفرهم ببعض، حين انتقدهم بشدة، موبخاً لهم على أخذهم من الدين ما يروق لهم، وإعراضهم عما لا يحلو لهم،

فأصبحوا هم الذين يتحكمون في الدين، وليس الدين هو الذي يحكمهم ويضبط مسيرتهم.

يقول تعالى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ [البقرة:

٨٥ - ٨٦].

وعلى هذا الأساس، لو أن المسلم أنكر آية واحدة من القرآن الكريم، أو سورة قصيرة من سوره مثل: الإخلاص أو العصر أو الكوثر، أو إحدى المعوذتين، فإنه يكون كافراً مرتداً، والعياذ بالله. ولو أنكر حكماً واحداً من أحكام الإسلام القطعية، المعلومة من الدين بالضرورة، لكان كافراً مرتداً.

لهذا نكفر اليهود والنصارى:

فاليهود والنصارى كفار في اعتقاد المسلمين؛ لأنهم لم يؤمنوا برسالة محمد، الذي أرسل إلى الناس كافة، وإليهم خاصة، كما ذكرنا في الآيات الصريحة البينة ﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [المائدة: ١٩].

وقد آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض، فهم بنص القرآن الصريح: ﴿ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾.

وهم لم يكتفوا بالكفر برسالة محمد، والإعراض عنها، بل كازوا له ومكروا به، وصدوا عن سبيله. كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ

يُظَنُّوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشَمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ [التوبة: ٣٢].

واليهود والنصارى كفار؛ لأنهم حرفوا كتبهم، وبدلوا دينهم، وقالوا على الله بغير علم، وشوهوا حقيقة الألوهية في كتبهم، ووصفوا الله بما لا يليق بجلاله وكماله، ونسبوا إليه نقص البشر، وعجز البشر، وجعل البشر، كما أنهم شوهوا صورة النبوة والأنبياء الذين جعلهم الله قدوة للبشر، وهداة لهم، فنسبوا إليهم من الرذائل ما لا ينسب لعوام الناس. وهذا ثابت في (أسفار التوراة) التي يؤمن بها اليهود والنصارى جميعاً، فكل ما يؤمن به اليهود في شأن الألوهية والنبوة يؤمن به النصارى؛ لأن التوراة المحرفة الموجودة الآن في أيديهم (كتاب مقدس) عند الطائفتين جميعاً.

ويزيد النصارى على اليهود ما انفردوا به في شأن المسيح، حيث اعتبروه إلهاً، أو ابن إله أو واحداً من ثلاثة أقانيم تكون (الإله). وهذا قد قرر القرآن بوضوح بيّن، وبيان واضح: أنه كُفّر، كما قال تعالى في سورة المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [في آيتين من السورة آية: ١٧ وآية: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [آية: ٧٣].

وفي سورة التوبة: - وهي من أواخر ما نزل أيضاً - جاء قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ

قَالَهُمْ اللَّهُ أَفَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ
 أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا
 إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾
 [التوبة: ٣٠ - ٣١].

النصارى أبعد عن ملة إبراهيم من اليهود:

وأحب أن أنبه بعض الأخوة الذين يدافعون عن النصارى، أو عن
 المسيحيين كما يحبون أن يسموا أنفسهم اليوم، ويريدون أن يصفوا
 عليهم صفة الإيمان، ويدخلوهم في زمرة المؤمنين بإطلاق، في حين
 لا يصنعون ذلك مع اليهود.

وربما ضللهم عن الحقيقة سوء فهمهم لقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ
 أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ
 أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ [المائدة: ٨٢].

فقد فهموا - من شدة عداوة اليهود للذين آمنوا وهم المسلمون،
 وقرب مودة النصارى لهم - أن اليهود أبعد عن ملة إبراهيم، وأعرف
 في الكفر ومن النصارى، مع أنه لا تلازم بين الأمرين.

فالواقع أن اليهود - وإن وقعوا في التشبيه والتجسيم - لم يؤلّوها
 موسى، كما ألّه النصارى عيسى، ولم يقعوا في التثليث، الذي سقط
 فيه المسيحيون.

وفي الشريعة: وجدنا اليهود يختنون أبناءهم، كما هي سنة
 إبراهيم، أما النصارى فلا يختنون.

ووجدنا اليهود يذبحون ما يأكلون من الحيوانات والطيور، في

حين لا يذبح النصارى، فقد قال لهم بولس: كل شيء طاهر للطاهرين.

واليهود يحرمون الخنزير والنصارى يبيحون الخنزير.

واليهود يحرمون التماثيل، والنصارى يجيزون التماثيل للمسيح الذي هو عندهم إله حق من إله حق، وللأنبياء والقديسين، ولذلك امتلأت كنائسهم بالصور والتماثيل.

تعبير أهل الكتاب لا يدل على الإيمان:

وتسمية القرآن اليهود والنصارى بـ(أهل الكتاب) لا يعني أنهم مؤمنون، بل يعني أنهم في الأصل أهل دين سماوي، فلهم مزية على غيرهم، ونحن نعلم أن القرآن استخدم في التعبير عن اليهود والنصارى عدة صيغ، بعضها صيغة مدح، وبعضها صيغة ذم، وبعضها يحتمل الأمرين. وهذا قد عرف بالتبع والاستقراء.

والصيغة الأولى: صيغة (الذين آتيناهم الكتاب) فهذا صيغة مدح في القرآن.

والصيغة الثانية: صيغة (الذين أوتوا نصيباً من الكتاب) فهذه صيغة ذم حيثما ذكرت في القرآن.

والصيغة الثالثة: صيغة (أهل الكتاب) أو (الذين أوتوا الكتاب) فهذه تذكر في موضع المدح حيناً، وفي موضع الذم حيناً آخر.

ولا بأس بذكر ما يدل على ذلك من كتاب الله تعالى:

ففي الصيغة الأولى نجد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ

حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴿ [البقرة: ١٢١] فالمقصود بهؤلاء: من هداهم الله إلى الإيمان بمحمد ورسالته وكتابه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكِئْبَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَلَئِذَا نُنَالُ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿ [القصص: ٥٢ - ٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكِئْبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَلَكِئْبَ فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلَكِئْبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الصيغة الثانية نجد قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ أَلَزَرَّ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ أَلَكِئْبَ يُدْعُونَ إِلَى كِئْبِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمْسُكَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُوقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الآيتان: ٢٣ - ٢٤] وواضح أن المراد بهم: اليهود، فهم الذين قالوا هذا القول.

وفي سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنْ أَلَكِئْبَ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الآيتان: ٥١ - ٥٢] وواضح أيضاً أن المراد بهم اليهود، كما دل السياق، ودلت أسباب النزول، حين قال مشركو مكة الوثنيون لليهود: أنحن أهدى أم محمد؟ فقالوا: بل أنتم.

وفي الصيغة الثالثة، نجد في المدح قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِئَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤] ولكن المدح - كما هو واضح - لجماعة منهم.

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] والمدح أيضاً لجماعة منهم، هم الذين آمنوا بالكتابين.

وفي الذم نجد قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

﴿وَدَكَايِثٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

﴿يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٧١﴾ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧١﴾ [آل عمران: ٧٠ - ٧١].

﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَّهَلَّ الْكِتَابُ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ [آل عمران: ٩٨ - ٩٩].

وسورة آل عمران جاء نصفها الأول في محاجة أهل الكتاب،

وخصوصاً النصارى، بعد زيارة وفد نصاري نجران للرسول ﷺ، وقد أكرم وفادتهم، وأحسن معاملتهم، حتى فرش لهم عباءته، وأدخلهم مسجده، وأذن لهم أن يصلوا فيه. ولكنه لم يحكم عليهم بأنهم مؤمنون، بل نزلت الآيات تفند شبهاتهم، وتقيم عليهم الحجة البالغة، وتبين بطلان دعاويهم في ألوهية المسيح أو بنوته لله، وجاء في ذلك قوله تعالى في السورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٦٠) ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَبَنَاتَنَا وَنِسَاءَنَا كُنُومَ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١) ﴿آل

عمران: ٥٩ - ٦١﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٦٢) ﴿قُلْ يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٣) ﴿يَتَّاهِلَ الْكَاتِبُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٤) ﴿آل عمران: ٦٣ - ٦٥﴾.

وفي السورة: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥) وسورة آل عمران أكثر سورة ذكرت فيها كلمة (أهل الكتاب).

وأطفال المسلمين يحفظون من قصار السور: سورة البينة) وفيها يقول الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفِكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (١) ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (٢) ﴿وفيها أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ

هُم شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ [البينة: ١ - ٢ - ٦].

نبهت الآيتان هنا، وما شابههما بأن هناك كفاراً من أهل الكتاب، وكفاراً من المشركين، وكلاهما من أهل الكفر.

ونجد نحو ذلك في صيغة ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فبعضها فيه مدح، مثل: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وبعضها يحمل الذم، مثل: ﴿وَلَكِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥] وفيها ﴿وَلَكِنْ أَتَّبَعْتُ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥] ﴿يَكَايَأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ طُغِيَوا قُرْبَاهَا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠]. ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مُمَّنًّا قَلِيلًا فَيَتَسَمَّيْنَهُ لِنَّاسٍ مَآيِسَتْرُوتٌ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

﴿فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩].

خليط من الأغلاط والأوهام:

تقول الكاتبة: لقد كلف الله المؤمنين من أمة محمد ﷺ بالإيمان بالشرائع التي أوحيت إلى الإنسانية من قبل القرآن الكريم، لدخول ذلك ضمن دائرة استطاعتهم، انطلاقاً من كون القرآن ركز فيما يقارب

ثلثيه على قصص الأنبياء والرسل السابقين، خصوصاً قصص إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، والكتاب الحق الذي نزل إليهم، والتوراة والإنجيل.

أما المؤمنون أصحاب الشرائع السابقة. فمن المنطق ألا يكلفهم تعالى الإيمان بما أنزل إلى الإنسانية من شرعة بعد شرعتهم، أي: بشرعة القرآن الكريم. حيث يكون ذلك خارج دائرة استطاعتهم، انطلاقاً من كون قصص القرآن كلها وأحكامه، لم تذكر في كتبهم المقدسة، وما ذكر فيها سوى بشارة ببعثة الرسول الكريم ﷺ... إلخ.

أقول: هذا الكلام يشتمل على أغلاط وأوهام كثيرة، التبس على صاحبه فيه الحق بالباطل، والهدى بالضلال. نحاول إجمالها فيما يلي:

أولاً: كأن الكاتبة تظمن أن أمة محمد هم العرب أو الوثنيون منهم، ناسية أن أمة محمد هم العالم كله، هم أمة الدعوة، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثانياً: ترى الكاتبة أن الإيمان بما أنزل الله من كتب وما بعث من رسل، يخرج عن دائرة استطاعة البشر، وهي دعوى لا تستند إلى أي منطق ديني أو عقلي، أي صعوبة في أن يعتقد المرء أن الله لم يدع عباده هملاً، ولم يتركهم سدى، وإنما بعث إليهم رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكموا بين الناس فيما اختلفوا فيه. هذا هو المطلوب من المكلفين أن يؤمنوا به، فهل في هذا صعوبة، بله الاستحالة؟!.

إن المهم هنا هو الإيمان بالمبدأ، أما أسماء الرسل، فيؤمن بما جاء به الوحي المعصوم منهم. وأما الإيمان برسالة محمد ﷺ، فهو إيمان برسالة قامت البراهين الناصعة على صدقها، وأقرب الناس إلى تصديقها هم أهل الكتاب، فقد جاء محمد مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه، وفي هذه الكتب السابقة من البشائر والإشارات ما يجعل تصديقه أمراً قريباً ومعقولاً جداً؛ لأنه سيجد دينه وقد صفى وهذب وتمم، فكيف يعرض عنه؟!

فإذا كان الوثني والمجوسي والملحد، مطالباً بالإيمان بمحمد، فأولى بذلك أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:

١١٤].

ثالثاً: إن الإيمان حقيقة واحدة لا تتغير بتغير العصور؛ لأنه يتضمن الاعتقاد الجازم بحقائق ثابتة عن الله تعالى، وعن الكون المخلوق الذي نعيش فيه، وعن الإنسان المستخلف من الله في هذا الكون وعن مصيره، وعن رسالته، وعلاقته بخالقه وبنفسه وبما حوله ومن حوله.

وهذه حقائق لا تكذب ولا تتطور، فالمفروض أن يطالب المؤمنون في كل عصر بالإيمان بهذه الحقائق.

رابعاً: كيف يكون من المنطقي ألا يكلف أصحاب الكتب والشرائع السابقة اتباع شرعة القرآن، والله تعالى لم يتكفل بحفظ كتبهم، بل استحفظها أهلها، ولهذا حرفت تلك الكتب وبُذلت،

وذلك ؛ لأن هذه الشرائع كانت محدودة في المكان وفي الزمان، فكل هؤلاء الرسل بعثوا إلى أقوامهم، لا إلى الناس كافة، وبعثوا لهم في فترة معينة، لا برسالة خاتمة ولا خالدة، بل كل منهم بشر بني يأتي بعده.

استدلال بما يدل على عكسه:

تقول الكاتبة: إن القرآن يدعو كل أمة للعمل بما جاء في شرعتها من مبادئ وأحكام وفرائض، إن كانت راغبة عن شرعة القرآن الكريم.

وكانها تعتبر العمل بشرعة القرآن أمراً تطوعياً أو اختيارياً.

وقد استدلت على دعواها بما ينقضها، لا بما يؤيدها. فذكرت قول الله تعالى لرسوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(أ) فهذه الآية تقرر أن القرآن مهمين على ما سبقه من الكتب، فهو يحكمها ولا تحكمه، وهو الذي يصحح ما دخلها من أغلاط البشر، وأهواء البشر.

(ب) ثم هي تأمر النبي ﷺ أن يحكم بينهم بما أنزل الله، أي بحكم القرآن الذي حفظه الله من التحريف والتبديل.

(ج) وهي بعد ذلك تحذره من أن يتبع أهواءهم، ويدع هدى الله سبحانه.

(د) وقد أكد هذه الآية آية تالية بعدها تقول: ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَٱعْلَمْنَ أَنَّهُ يُرِيدُ إِلَهَ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَفَحُكْمَ الْجَهَنَّمِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَن أَحْسَنُ مِّنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

وتستدل الكاتبة أيضاً على دعواها بقول الله تعالى: ﴿قُل يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۖ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة: ٦٨].

تقول: تطلب الآية من أهل الكتاب إقامة التوراة والإنجيل، وألا يزيدوا على أحكامها، أي: الحكم بما جاء إليهم فيهما، إن كانوا راغبين عن اتباع شرعة القرآن الكريم التي أنزلت على محمد ﷺ.

وأقول متعجباً: كيف أغفلت الكاتبة هذه الفقرة الواضحة في الآية، وهي قوله تعالى: بعد التوراة والإنجيل: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي القرآن الكريم فليسوا على شيء من الدين يعتد به إذا لم يقيموا ما بقى من أحكام التوراة والإنجيل وما أنزل الله من أحكام القرآن مصداقاً ومصححاً ومتمماً.

ولا يقال: كيف يكون القرآن منزلاً إليهم، وإنما أنزل إلى أمة محمد؟ ونقول: هم من أمة محمد ﷺ، أعني: أمة الدعوة لا أمة الإجابة، كما هو معروف عند علماء المسلمين من قديم. لأن محمداً مبعوث إلى الناس كافة وهو منهم، فهم مخاطبون بقوله تعالى:

﴿ أَتَعْبُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

هذه آيات محكمات صريحات الدلالة، لا يجوز أن تعرض عنها وتتعلق بآيات متشابهات معروفة عند أهل العلم المراد منها مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَيفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٤٣].

المسيحيون والتثليث:

تريد الكاتبة: أن تبرىء المسيحيين من تأليه المسيح، ومما هو معروف عندهم من عقيدة التثليث، والقول بأن المسيح ابن الله، وتدلل على ذلك بثلاثة أدلة:

١ - قول الوصية الأولى من الوصايا العشر: (أنا هو الرب إلهك، لا يكن لك إله غيري).

وهذه حجة عليهم لا حجة لهم. لأنهم تركوها وراءهم ظهرياً، اتخوا آلهة أخرى من خلقه.

٢ - تقول: إذا كان المسيحيون يصفون السيد المسيح بـ(ابن الله) فإنهم يصفون المؤمنين جميعاً بأبناء الله، كما في قول إنجيل متى: (طوبى لصانعي السلام؛ لأنهم أبناء الله يدعون) ونحن نقر هذا، ولكنهم لا يعترفون بأن المسيح كسائر الناس، إنه (الرب) إنه إله حق من إله حق. ومن المصطلحات المعروفة المكرورة عندهم: الإله الأب، والإله الابن.

فهل تكون الكاتبة ملكية أكثر من الملك، أو تقول المسيحيين ما لا يقولونه؟.

تحريف الإنجيل وتبعة المسيحيين المعاصرين:

٣ - تقول الكاتبة: إذا سلمنا جدلاً!! أن الأناجيل محرفة، فإنه يمتنع على عدل الله المطلق أن يعاقب المسيحي اليوم بما اقترف آباؤه وأجداده من تحريف للكتب في قديم الزمان. حيث لا تزر وازرة وزر أخرى.

وأنا أعجب من قول الكاتبة: إذا سلمنا جدلاً، كأنها تنكر ذلك، وقد أثبت المسلمون من قرون مضت تحريف التوراة و الإنجيل، وكذلك في العصر الحديث، عما يتجلى ذلك في الكتاب العلمي القيم (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندي، وكما وضح ذلك في مناظرات وكتابات أحمد ديدات، كما أن الباحثين المحايدون من الغربيين أنفسهم قد كتبوا في ذلك كتابات كثيرة لها وزنها.

ويكفي أن الإنجيل الذي أنزل الله على عيسى لا يوجد الآن، إنما توجد سير له مشتملة على بعض مواعظه، كتبها بعض تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه، أعني: الأناجيل الأربعة المعروفة حالياً، والمعروفة بأسماء مؤلفيها: متى ومرقس ولوقا ويوحنا. والتي لا توجد نسخها بلغتها الأولى التي كتبت بها، إنما توجد ترجمات لها، وهذه الأربعة اختيرت من بين سبعين إنجيلاً، وأحرقت الأخرى. كما هو معروف في تاريخ المسيحية.

على كل حال لندع ذلك، ولنبحث في عدل الله في تحميل المسيحي وزر آبائه الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، أقول: هذا بالمنطق المسيحي مقبول. فهم يحملون البشرية جمعاء وزر معصية أبيهم الأول آدم - حين أكل من الشجرة - ومع أن هذا حدث منذ ألوف

السنين التي لا يعلمها إلا الله، ولا شهدها هو ولا آباؤه، ولا أجداده .
ومع هذا قال المسيحيون: إن كل آدمي يولد وفي عنقه خطيئة أبيه
آدم! .

أما بمنطق الإسلام فلا يحمل أحد وزر غيره، إلا أن يرضى عن
ذنبه أو يتبناه أو يدافع عنه، أو يستمر في طريقه، ففي هذه الحالة
يتحمل وزر نفسه، وإن كان امتداداً لعمل غيره ممن سبقه .

وعلى ضوء هذا نجد القرآن يخاطب بني اسرائيل في أيام الرسول،
ويحملهم آثام أجدادهم، ويخاطبهم كأنهم هم الذين اقترفوها، لأنهم
رضوها، بل مضوا على سنة آبائهم، وافتخروا بهم، وعظموهم،
فكان لا بد أن يبوؤوا بإثمهم . يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً
ثُمَّ أَخَذْنَاهُمُ الْعَهْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ . . . وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ
حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ ﴾ [البقرة: ٥١-٥٥] .
إلى آخر الآيات، التي تحملهم جرم آبائهم . لأنهم على آثامهم
مقتدون .

موقف الإسلام من أهل الكتاب والمشركين:

تقول الكاتبة: عندما يصدر الفقه الإسلامي حكماً عاماً بالكفر أو
بالشرك بالله على أهل الكتاب جميعاً، فإن هذا يجعلهم في مرتبة
واحدة مع الكفار والمشركين، حيث لا ينفع في دين الإسلام منح منزلة
خاصة لأمة ما، مع فسادان عقيدتها . مما يعطي التبرير الكافي لأعمال
التشدد والعنف، والإقتال الطائفي ضد إخواننا المسيحيين . حيث
يطبق عليهم قصار النظر من المسلمين قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ

الْحَرَمُ فَأَقْبَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِنَّا تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْنَا الزَّكَاةَ فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ... (الآية: [التوبة: ٥]).

ونقول للكاتبة: ليس علماء الفقه الإسلامي هم الذين أصدروا هذا الحكم على أهل الكتاب بالكفر، بل أصدره الله سبحانه في آيات كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ولذا أجمع عليه علماء الفقه، وعلماء التوحيد، وعلماء التفسير، وعلماء الحديث، وكل علماء الأمة في شتى الاختصاصات.

وقد ترتب على هذا الحكم الأصلي فروع كثيرة، كما في الميراث حيث لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم. فلا يرث اليهودي والنصراني من المسلم، ولا العكس، وكذلك في الشهادة وفي الجنايات (يقتل مسلم بكافر) - كما أخذ بظاھر جمھور الفقھاء - وغيرها.

وهذا لا يعني أنهم في مرتبة واحدة مع (المشركين) الذين ذكرهم القرآن، وعنى بهم (الوثنيين) من العرب وأمثالهم، وهم الذين نزلت فيهم آية سورة التوبة ﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ [التوبة: ٥].

فإن القرآن حرم نكاح المشركات، وأجاز نكاح الكتابيات، وهذه قمة في التسامح مع المخالفين في العقيدة لم يرق إليها دين من الأديان. كما أمر القرآن بجداھهم بالتي هي أحین، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ثم إن الكفار - حتى المشركين منهم - ليسوا في موقف واحد مع

الإسلام، فمنهم المسلمون، ومنهم المحاربون. وحسب موقفهم من الإسلام والمسلمين، يتحدد موقف الإسلام منهم. وهذا قد وضّحته آيتان في كتاب الله تعالى، تعتبران بمثابة الدستور في معاملة غير المسلمين، يقول تبارك وتعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ قُولُوهُمْ وَمَنْ يَنْوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

قد بين الله تعالى هنا أنه لم ينه عن البر بالمخالفين في الدين وإقامة القسط - وهو العدل - معهم، وإن كانوا مشركين، كالذين نزلت فيهم آيتا سورة الممتحنة. وقد استخدم القرآن لفظة (البر) وهي الكلمة التي تستخدم في أعظم الحقوق بعد حق الله، وهو حق الوالدين، فيقال: بر الوالدين. وهذا يرد على قول الكاتبة: لا ينفع في دين الإسلام منح منزلة خاصة لأمة ما، مع فساد عقيدتها.

وسياأتي مزيد بيان لأسس التسامح الإسلامي مع المخالفين، مع اعتقاد المسلم بطلان دينهم وفساد عقيدتهم.

وقد رأينا كثيرين من المسلمين وتزوجوا مسيحيات وبقين على دينهن، وعشن في كرامة وقرة عين مع أزواجهن من المسلمين.

ومفهوم ما ذكرته الكاتبة: أنها تبرر التشدد والعنف مع المشركين والوثنيين ولا تجيزه مع أهل الكتاب وحدهم! ونحن لا نجيز العنف مع أحد، إلا بشروطه وضوابطه، ولو كان وثنياً مشركاً.

الفقه الإسلامي وإباحة الزواج بالكتابات:

تقول الكاتبة: يواجه الفقه الإسلامي إشكالية حقيقية، حين يعتبر اليهود والنصارى كفاراً أو مشركين بالله على وجه العموم، في الوقت الذي يبيح فيه زواج المسلم من نسائهم. إذ كيف يصح هذا مع تحريم زواج المسلمين من الكفار والمشركين والمشركات في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُ ۖ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: ٢٢١].

ونقول للكاتبة: إن الفقه لم يواجه أي إشكالية فيما ذكرت. فالقرآن حرم زواج (المشركات) ولم يحرم زواج الكتابيات وإن كن كافرات، ولورجعت الكاتبة إلى القرآن ذاته لوجدته يعبر عن (عباد الأوثان) بالمشركين والمشركات، والذين أشركوا، وهذا وضع في مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

فقد دل عطف المشركين على الذين كفروا من أهل الكتاب أن المشركين صنف آخر غيرهم، إذ العطف - كما هو معلوم - يقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الحج:

١٧] ذكرت الآية مع الذين آمنوا أصحاب الملل المختلفة، من اليهود والنصارى من أهل الكتاب، والمجوس عباد النار والذين أشركوا عباد الأوثان. فدللت على أن الذين أشركوا صنف آخر غير اليهود والنصارى.

واباحة الإسلام زواج المسلم من كتابية - مع أنه يعتقد كفرها - يعتبر قمة في التسامح مع المخالفين، ونقله نوعية في التعامل معهم، وهذا هو الرائع حقاً: أن يتزوج المسلم من مسيحية، وإن كان يؤمن أن عقيدتها في التثليث وتأليه المسيح وغيرها: باطلة، وأن من اعتقدها فهو كافر، ومع هذا يتخذها شريكة حياته، وربة بيته، وأم أولاده ويسكن إليها، ويكون بينهما مودة ورحمة، كما شرع الله عز وجل. ثم يترتب على ذلك الزواج قرابة المصاهرة وآثارها حيث يكون أهل الزوجة أحماء زوجها، وأبوها جد أولاده، وأمها جدتهم، وأخوها خالهم، وأختها خالتهم، هؤلاء لهم حقوق ذوي القربى، وأولي الأرحام.

هذا ما عليه جماهير المسلمين منذ عهد الصحابة، ولم يخالف في ذلك إلا عبد الله بن عمر، الذي أنكر زواج المسيحية، واعتبرها مشركة، وقال: وأي شرك أكبر من أن تقول: إن ربها عيسى، وهو عبد من عباد الله؟!

حقائق يجب التنبيه عليها:

وأود أن أنبه هنا على جملة حقائق قد يغفل عنها بعض الناس، وهي من الأهمية بمكان.

كفر أهل الكتاب ليس كفر إلحاد:

الأولى: أن الكفر الذي ننسبه إلى أهل الكتاب ليس هو كفر الجحود بالآلوهية، فكفرهم ليس كفر إلحاد، ككفر الشيوعيين ، والماديين بصفة عامة، الذين ينكرون كل ما وراء الحس، وما وراء المادة، ولا يؤمنون بأي غيب. وذلك أنهم يؤمنون بالله في الجملة، أي وإن كان في إيمانهم به شوائب تنكرها العقيدة الإسلامية، كما أنهم يؤمنون بالوحي والنبوة في الجملة أيضاً، وإن كفروا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وأسأؤا إلى صورة الأنبياء في كتبهم، وكذلك يؤمنون بالآخرة والجزاء الإلهي فيها، وإن دخل على هذه العقيدة ما دخل عليها مما لا يوافق عليه الإسلام.

وهذا هو الذي جعل لأهل الكتاب منزلة خاصة في الإسلام دون غيرهم من أصحاب الملل والوثنية والوضعية، وأجاز الإسلام مؤاكلتهم ومصاهرتهم، وهذه قمة في التسامح لم يصل إليها دين من الأديان.

ومن أجل هذا نزلت الآيات الأولى في سورة الروم تبين أن الروم - وهم نصارى - أقرب إلى المسلمين من الفرس ، وهم مجوس يعبدون النار . فقال تعالى : ﴿ ١ 〉 غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿ ٢ 〉 فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿ ٣ 〉 فِي بِضْعِ مِثْقَلٍ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿ ٤ 〉 بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿ ٥ 〉 [الروم : ١ - ٥] .

ومن أجل ذلك رحبنا بالدعوة إلى الحوار بين الأديان الكتابية، لوجود أرضية مشتركة يمكن أن تجمع بينهم، وتجعل منهم كتلة ضد الإلحاد وضد الإباحية، والانسلاخ من الإيمان والفضائل.

مخاطبة اليهود والنصارى بأهل الكتاب:

الحقيقة الثانية: أننا وإن قلنا: أن اليهود والنصارى كفار بدينا، فلا يجوز أن نناديهم بـ (يا أيها الكفار والكافرون) لأن القرآن الكريم لم يناد أي طائفة من طوائف المشركين ولا غيرهم بوصف المشرك أو الكفر، بل يقول في نداء المشركين: (يا أيها الناس) أو (يا بني آدم) أو نحو ذلك.

كما ينادي اليهود والنصارى بهذا النداء الذي يقرب بين القلوب ولا يباعدتها (يا أهل الكتاب).

ولم يجرى (يا أيها الذين كفروا) إلا في آية واحدة في سورة التحريم، حيث ينادي به الكفار بعد دخولهم النار والعياذ بالله، يقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْنِدُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تَجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ٧].

وجاءت آية وتحدة تخاطب الرسول بقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [١] لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ [٢] [الكافرون: ١-٢] وكان لها مناسبة أراد الله تعالى بها أن تكون حاسمة في سد الباب أمام المشركين، وقطع أطماعهم في استجابة الرسول لهم: أن يعبد آلهتهم فترة من الزمن ويعبدوا إلهه فترة مماثلة، فاستخدم هذه اللفظة في تلك المرة ولم تتكرر بعد ذلك في القرآن مكية أو مدنية.

أساس التسامح الإسلامي:

والحقيقة الثالثة، هي كيف نوفق بين اعتقادنا بكفر أهل الكتاب ودعوتنا إلى التسامح معهم؟.

وأقول هنا: أن كل ذي دين، بل كل ذي مبدأ: يؤمن بأنه على الحق، وأن من عداه على الباطل، أي كما قال القرآن: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْمَرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] فهو يؤمن بدينه ومبدئه، ويكفر بما سواه وإلا كان إيمانه مدخولاً.

فمن آمن بالمادية كفر بالالوهية، ومن آمن بالالوهية كفر بالمادية، ومن آمن بالرأسمالية، كفر بالشيوعية، ومن آمن بالشيوعية كفر بالرأسمالية. ومن آمن بالديمقراطية كفر بالدكتاتورية، والعكس بالعكس.

ومن هنا نجد المسيحي يؤمن حسب عقيدته بأن المسلمين كفار لا يعني أنهم كفار بالله، بل كفار بعقيدته المسيحية بما فيها من التثليث وغيره.

وهذا صحيح، وإذا لم يعتقدوا ذلك في المسلمين كانوا كاذبين في دينهم، أو مجاملين للمسلمين.

وكذلك يعتقد المسلم في النصارى والمسيحيين بأنهم كفار، ولا يعني هذا أنهم ملحدون، بل كفار بعقيدة الإسلام، وبرسالة محمد.

ولأن المسيحيين يعتبرون المسلمين كفاراً وضالين، يبذلون جهوداً جبارة من أجل تنصيرهم، وإخراجهم من ضلالتهم، ولا يجهل أحد الجهود التنصيرية - أو التبشيرية كما يسمونها - التي بدأت مع عصر الاستعمار، وسارت في ركابه وتمتعت بحمايته، في البلاد الإسلامية المختلفة في آسيا وإفريقيا، حتى إنهم عملوا لتنصير إندونيسيا - أكبر بلد إسلامي - في مدة خمسين سنة ووضعوا لذلك

خططهم، و كشفوا نشاطهم. ولكن الله تعالى خيب سعيهم، وأبطل كيدهم، وإن حققوا بعض النجاح.

ولا زالوا إلى اليوم يعملون وينفقون ويحاولون، وقد تابعنا مؤتمر المبشرين الأمريكان الذي عقد في ولاية (كلورادو) بأمريكا سنة ١٩٧٨، تحت عنوان (تنصير المسلمين في العالم) وقدم أربعين دراسة في ذلك، وأنشأ معهداً لذلك سموه: (معهد زويمر) ورصدوا لذلك ألف مليون دولار.

ونحن لا نلومهم لاعتبارنا كفاراً ضالين؛ لأن هذا طبيعة كل دين، كما قلنا: أن يعتقد المؤمن به أنه وحده على الهدى، وأن غيره على الضلال، إلا إذا نافق أو جامل.

كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد كفره؟:

وهنا يتبادر سؤال مهم يحتاج إلى جواب .

وهو: كيف حل الإسلام هذه العقدة؟ أعني كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد أنه كافر في دينه؟

هنا تتجلى حكمة الإسلام وعظمته في معاملة غير المسلم برغم اعتقاد المسلم بكفره، وهذا ما بيئته من قديم في كتابي (غير المسلم في المجتمع الإسلامي) تحت عنوان (أساس التسامح الإسلامي).

مفاهيم إسلامية للتسامح مع المخالفين:

ولب هذا التسامح: أن الإسلام زود المسلم بفلسفة معينة أو بمفاهيم فكرية تزيح من صدره النفور والغضب والضيق بغير

المسلمين، وتفتح له باب حسن العشرة معهم والبر بهم، والإقساط إليهم، فإن الله يحب المقسطين.

أهم هذه المفاهيم هي:

١ - اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان، أيا كان دينه أو جنسه أو لونه. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء: ٧٠] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية.

ومن الأمثلة العلمية ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله: أن جنازة مرت على النبي ﷺ فقام لها واقفاً، فقيل له: يا رسول الله إنها جنازة يهودي! فقال: «أليست نفساً؟!» بلى ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان، فما أروع الموقف، وما أروع التفسير والتعليل!

٢ - اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس في الدين واقع بمشيئة الله تعالى، والذي منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] قال المفسرون: أي وللاختلاف خلقهم لأنه منحهم العقل والإرادة، فاقترضت مشيئته أن يختلفوا.

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة، علم الناس ذلك أو جهلوه. ولهذا لا يفكر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

٣ - ليس المسلم مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم، أو يعاقب الضالين على ضلالهم، فهذا ليس إليه، وليس موعده هذه الدنيا، إنما حسابهم إلى الله في يوم الحساب، وجزاؤهم متروك إليه في يوم الدين. قال تعالى: ﴿وَأَن جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [١٨] **اللَّهُ يَخْتَكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِسْمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ** ﴿١٩﴾ [الحج: ٦٨-٦٩] وقال يخاطب رسوله في شأن أهل الكتاب: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وقد قال عيسى عليه السلام لربه يوم القيامة: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وبهذا يستريح ضمير المسلم، ولا يجد في نفسه أي أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد.

٤ - إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل، ويحب القسط، ويدعو إلى مكارم الأخلاق، ولو مع المشركين، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين، ولو كان الظلم من مسلم لكافر. قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال ﷺ: «دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - ليس دونها حجاب»^(١).

(١) رواه أحمد في المسند.

وقال تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة : ٨].
والحمد لله أولا وآخراً، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله
وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
موقف الإسلام العقدي من كفر اليهود والنصارى	٧
حقيقة الإيمان بالغيب	١١
اتباع المتشابهات	١٥
ما قاله صاحب المنار في تفسير الآيات	١٧
هل تكفى (لا إله إلا الله) وحدها	٢٣
الإيمان بالرسول ركن أساسي في العقيدة	٢٥
رسالة محمد للعالمين ومنهم اليهود والنصارى	٢٩
دلائل أخرى على كفر أهل الكتاب	٣٣
الإيمان لا يتجزأ	٣٤
النصارى أبعد عن ملة إبراهيم من اليهود	٣٧
خليط من الأغلاط والأوهام	٤٢
استدلال بما يدل على عكسه	٤٥
المسيحيون والتثليث	٤٧

٤٨	 تحريف الإنجيل وتبعة المسيحيين المعاصرين
٥٢	 الفقه الإسلامي وإباحة الزواج بالكتايبات
٥٣	 حقائق يجب التنبيه عليها
٥٤	 كفر أهل الكتاب ليس كفر إلحاد
٥٥	 مخاطبة اليهود والنصارى بأهل الكتاب
٥٥	 أساس التسامح الإسلامي
٥٧	 كيف يتسامح المسلم مع من يعتقد كفره
٥٧	 مفاهيم إسلامية للتسامح مع المخالفين
٦١	 الفهرس

هذا الكتاب

إن " التعايش " بين أهل الأديان لا ينفي موقف كل منها نحو الآخر، ففي واقع حديّة المواقف الإقصائية والإلغائية التي يتبناها اليهود والنصارى حول الإسلام وأتباعه حتى أنهم لا يعترفون به كدين، يُرى في المقابل الموقف الإسلامي المنفتح والمستوعب لمبدأ الاختلاف، ويظهر ذلك واضحاً في جانبه المعاملاتي في حقوق والواجبات. رغم ما طرأ على هاتين الديانتين من تحوير وتغيير يثبت التاريخ ويدعمه المنطق وتظهره الحجة.

ورغم ما يظهره الإسلام موقفه العقدي من مروق اليهود والنصارى من الدين وتمردهم عليه من خلال ما أحدثوه فيه يبقى ينظر لهم كأصحاب ديانة يحتويهم في مجتمعه ويقر لهم حياتهم.

فما موقف الإسلام منهم؟